مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

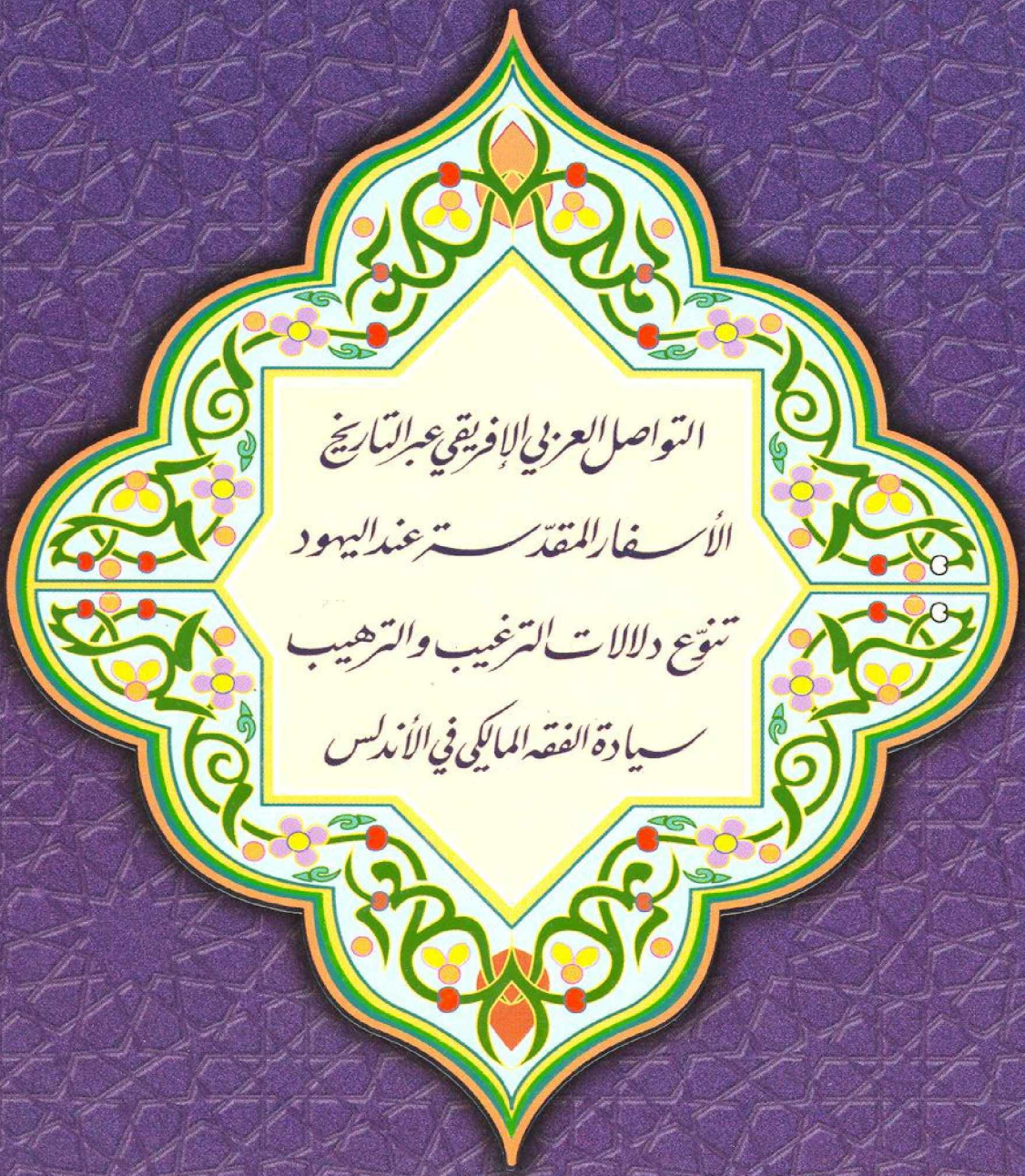

توطئة:

المدح وصف جميل للموصوف به، والوصف جنس يشمل الأوصاف بصورة عامة الجميلة منها والقبيحة، فلفظ (جميل) قيد، يخرج به كل وصف غير جميل، أي: القبيح، وهو ما يسمى بالذم، وعلى هذا فالذم وصف قبيح للموصوف به[1].

(1) تطبيق الأساليب الإنشائية في قواعد النحو، لصالح عبد السلام الطالب، جامعة الأزهر، ج2، ص5.

وبناءً على ذلك فإنَّ المدح يتناول الأوصاف أو الخصال الطيبة كالصدق، والأمانة، والشجاعة، والكرم، ونحوها مما يدل على الأمور المحمودة في صاحبها قولاً، أو فعلاً.

أمَّا الذم، فهو يدور غالباً حول الأوصاف، أو الخصال القبيحة، كالكذب، والنفاق، والغدر، والخيانة، ونحوها مما يدل على الأمور المذمومة في المتصف بها.

إنَّ هذا البحث يهدف إلى التعريف بهذين الأسلوبين، وكذلك مدى التطور التاريخي لكل منهما في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، وفيما يلي تفصيل لذلك:

للمدح والذم مدلولات لغوية عديدة، فقد جاء المدح لغة بمعنى الثناء، والافتخار، يقول صاحب القاموس: «مدح يمدح مدحاً ومدحة: أحسن الثناء عليه، كمدَّحه، وامتدحه، والمديح والمدح والأمدوحة: ما يُمدح به، وجمعها مدائح وأماديح، وتمدَّح: افتخر بما ليس عنده»[2]، كما يفيد لفظ المدح أيضاً معنى الحمد، فالحمد ضرب من المدح الذي يقتضي الثناء على الممدوح بما فيه من محاسن طيبة، وهو يقارب الشكر في الدلالة، والفرق بينهما يظهر بضدهما، فضد الحمد الذم، وضد الشكر الكفر بالنعمة، وذلك أنَّ الشكر لا يتأتى إلا على معروف أُسدي، ولهذا يقال: حمدته على ما فيه، وشكرته على ما منه، وقد يحل أحدهما محل الآخر بسبب تقارب معنييهما[3]، وفي معنى الحمد يقول صاحب اللسان: «الحمد نقيض الذم، يقال: حمدته على فعله، ومنه المحمدة، خلاف المذمة»[4].

هذا كما أنَّ المدح قد يدل على مشاعر الإعجاب والاحترام من قبل المادح تجاه ممدوحه، حيث يتم التعبير عن هذه المشاعر بسرد مآثر الممدوح، أو عرض محامده التي يتحلى بها، كما يدل لفظ المدح أيضاً على إظهار أو

---

(2) القاموس المحيط، لفيروز آبادي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، مادة: (مدح).

(3) شرح المفصَّل، لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج1، ص4.

(4) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة: (حمد).

إثبات الصفات الحسنة في الممدوح، سواء أكانت هذه الخصال خُلُقية أم طبيعية.

ويختلف المدح عن الحمد بكونه، أي المدح أعم من الحمد، وفي هذا يقول صاحب محيط المحيط: «مدحته مدحاً، من باب منع: أثبت عليه ما فيه من الصفات الجميلة، خلقة كانت أو طبيعية، ولهذا كان المدح أعم من الحمد»[5].

وقد تُقلب الحاء فيه هاءً، فيقال: مدهته مدهاً، أي: مدحته مدحاً، ويُروى عن الخليل بن أحمد أَنَّ المدح بالحاء يكون للغائب، بينما المده بالهاء، فيكون للحاضر[6].

وقد تحدَّث أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق في اللغة) عن أهم الفوارق اللغوية لبعض المعاني التي تندرج تحت مفهوم المدح والذم، كالفرق بين الحمد والمدح، فقد قال: «الحمد لا يكون إلا على إحسان، والله حامد لنفسه، على إحسانه إلى خلقه، فالحمد مضمَّن بالفعل، والمدح يكون بالفعل والصفة، وذلك مثل أن يمدح الرجل بإحسانه إلى نفسه، وإلى غيره، أو يمدح بحسن وجهه، وطول قامته، ويمدح بصفات التعظيم»[7].

هذا كما أشار أبو هلال إلى أهم الفروق اللغوية بين المدح والإطراء، فقال: «الإطراء: هو المدح في الوجه، ومنه قولهم: الإطراء يورث الغفلة، يريدون المدح في الوجه، والمدح يكون مواجهة، وغير مواجهة»[8].

أمَّا مفهوم لفظ (الذم) في اللغة، فيعني العديد من المعاني، فهو يتضمن معنى المعايب، نقائض المحامد... ويعني أيضاً العتاب والتأنيب، واللوم، يقول صاحب اللسان: «الذم نقيض المدح، ذمّه يذمه ذماً ومذمة، فهو مذموم،

---

(5) محيط المحيط، لبطرس البستاني، مكتبة بيروت، لبنان، 1977ف، مادة: (مدح).

(6) المرجع السابق، مادة: (مدح).

(7) الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، الدار العربية للكتاب، الطبعة السادسة، 1983ف، ص41.

(8) المرجع السابق، ص42.

وأذمَّه: وجده ذميماً مذموماً، وأذم بهم: تركهم مذمومين في الناس، عن ابن الأعرابي، وأذم به: تهاون، والعرب تقول: ذم يذم ذماً، وهو اللوم في الإساءة، والذم والذموم واحد، والمذمة الملامة»[9].

ويفيد لفظ (الذم) كذلك معنى الانتقاد، والتوبيخ، والعيب[10]. كما يتضمن الهجاء معنى الذم، غير أنَّ الهجاء كثيراً ما يؤتى به في الشعر لغرض الشتم»[11].

وقد تناول ابن سيده كغيره من اللغويين بعض المعاني التي يفيدها لفظا المدح والذم، فذكر في معجمه (المخصَّص) بعض المعاني المحمودة والمذمومة في الإنسان والحيوان، وغيرهما، مستشهداً بأقوال اللغويين كقول ابن السَّكِّيت: «رجل واسع الذرع، أي: واسع الخلق والصدر على سبيل المدح»[12].

هكذا تناول اللغويون لفظي المدح والذم كدلالة معجمية دون أن يتطرقوا إلى الأساليب المتضمنة لهما، بينما النحاة، فينظرون إليهما من حيث كونهما أسلوبين من أساليب العربية، وذلك من خلال تراكيب لغوية خاصة بهما، تستعمل فيهما أفعال جامدة، لا يلحظ فيها معنى الحدث، لكنهم عدّوها أفعالاً لأسباب تقتضيها الصناعة النحوية، وهذه الأفعال هي: (نعم وحبذا) لإنشاء المدح المبالغ فيه، و(بئس وساء ولا حبذا) لإنشاء الذم العام على سبيل المبالغة، معتبرين أن كل تركيب لغوي، يتضمن واحداً من هذه الأفعال إنما هو تركيب نحوي خاص بالمدح أو الذم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[13]، وكقوله عزَّ وجل: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[14] حيث تناول هؤلاء النحاة هذين الأسلوبين بالبحث والدراسة، فوضعوا فيهما

(9) لسان العرب، لابن منظور، مادة: (ذمَّ).
(10) الرائد، لجبران مسعود دار العلم للملايين، 1964ف، مادتي: (ذمَّ/ وبَّخ).
(11) لسان العرب، مادة: (هجا).
(12) المخصَّص، لابن سيده، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، ج1، ص157،
(13) سورة آل عمران، الآية: 173.
(14) سورة إبراهيم، الآية: 31.

قواعد ثابتة، وضوابط معينة، وعدّوا الخروج عنها فساداً، يضرُّ بتركيبهما اللغوي، ولذلك تعدَّدت آراؤهم، وتشعبت مذاهبهم فيه، مثل كون (نعم وبئس) فعلين أو اسمين، وموقفهم من (أل) التي تدخل على الفاعل فيهما من حيث الجنسية والعهدية، كما تناولوا لغات العرب فيهما، وإعراب المخصوص عند التقديم والتأخير، إلى غير ذلك من المسائل النحوية المتصلة بهذين الأسلوبين.

أمَّا أهل البلاغة فإنَّهم يتناولون المدح والذم من حيث كونهما غرضاً من ضمن الأغراض البلاغية التي تفيدها التراكيب، وتُفهم من خلال السياق، وقرائن الأحوال، وما يقتضيه المقام الكلامي.

فمن أمثلة المدح الذي يفهم من خلال السياق والقرائن ما جاء في قول عنترة بن شداد في مدحه للملك زُهَير بن جُذَيْمَة العَبْسي:

وَاتِّكَالي على الذي كُلَّما أَبْـ ... ـصَرَ ذُلِّي، يَزيدُ في تَعْظِيمي

وَمُعيني عَلَى الدَّهْر لَيْثٌ ... هُوَ ذُخْري، وَفَارِجٌ لِهُمُومي

وَإِذَا سَارَ سَابَقَتْهُ المَنَايَا ... نَحْوَ أَعْدَاهُ قَبْلَ يَوْمِ القُدُومِ[15]

ومن أمثلة التراكيب التي تتضمن مفهوم الذم أو الهجاء ما ورد في قول أبي تمَّام في هجائه لنفر من العرب أساءوا إليه:

ملقى الرجاء، وملقى الرحل في نفر ... الجودُ عندهم قولٌ بلا عملِ

أضحوا بمستنّ سيل الذم، وارفعت ... أموالهم في هضاب المطل والعللِ[16]

وبهذا تناول اللغويون والنحاة وأهل البلاغة أسلوبي المدح والذم، غير أنَّ المدح في رأيي ما هو إلا التعبير عن رضا المتكلم عمَّا يفعله أو يتصف به المخاطب أو المتلقي من أمور محمودة، وأنَّ هذا التعبير يدل غالباً على مشاعر الحب أو الرضا في نفس المادح تجاه ممدوحه، وعلى هذا فإنَّ الحمد والثناء، والتعظيم، والإطراء، والافتخار، والشكر، ونحوها من المعاني، إنما هي

---

(15) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق كرم البستاني، دار لبنان للطباعة والنشر، 1966ف، ص209.

(16) ديوان أبي تمام، شرح وتعليق شاهين عطية، مراجعة بولس الموصلي، دار صعب، بيروت، ص221.

أمور، تتضمن ارتياح المتكلم عمَّا يفعله أو يتصف به المتلقي أو المخاطب، وعلى عكسه الذم، فهو يدل في الغالب على عدم ارتياح المتكلم تجاه مخاطبه، ولهذا فاللوم، والتحقير، والتأنيب، والانتقاد، والشتم، وغيرها من المعاني، إنما هي أمور، تدل على عدم ارتياح المتكلم تجاه مخاطبه.

ولما كان لكل عصر خصائصه ومميزاته الفكرية والأدبية، لذا فإن لكل من المدح والذم خصائصه ومميزاته في العصر الجاهلي، تختلف عن صدر الإسلام، وفيما يلي دراسة للمدح والذم في هذين العصرين، ومدى التطور التاريخي الذي وصلا إليه:

أولاً ـ المدح في العصر الجاهلي:

للشعراء العرب مديح واسع في هذا العصر، فقد سلكوا فيه اتجاهات عدة، تدور حول الفضائل التي يعتزُّ بها العرب، وتُعَدُّ محل تقدير، واحترام في المتصف بها في الوسط الاجتماعي، الذي يعيش فيه، كالشجاعة، والكرم، وإباء الضيم، والوفاء بالعهد، وغيرها من الخصال المحمودة.

فكان هؤلاء الشعراء كثيراً ما يمدحون بمثل هذه المناقب، سواء أكان ذلك في قبائلهم، أم في مادة هذه القبائل، وذلك على سبيل التباهي والتفاخر بها، حيث كان الشعراء في ذلك العصر يشيدون بالقبيلة التي يجدون فيها كرم العطاء، وحُسْن الجوار، ورفاهية العيش، كما اتخذ المدح عندهم وسيلة للدفاع عن القبيلة وأحلافها، وذلك بذكر بطولات رجالها وشجاعتهم وقت الحرب، فكان أسلوب المدح عند الجاهليين يمثل صورة صادقة، تعكس وجه الحياة الاجتماعية، فهو يصوِّر البيئة العربية أنذاك، وقيمها الأصيلة، وحياتها الفكرية الثقافية.

وفي هذا العصر كثير من شعراء المديح، ومن أشهرهم على سبيل المثال امرؤ القيس، وزهير بن أبي سُلمى، والنابغة الذبياني، والأعشى، والمُنَخَّل اليشكري، وأبو زيد الطائي، وكعب بن زهير، وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكرهم.

هذا وقد كان المدح في بداية هذا العصر يتسم بالصدق، وعدم المبالغة أو التفاني في الممدوح، لأنَّ بيئتهم العربية الخالية من شوائب المدنية، كانت تفرض على شعراء المديح النزاهة والصدق في إظهار الحقائق من صفات الممدوح، بعيدين عن التملق أو النفاق، وقد أشار أحد مؤرخين الأدب، في معرض حديثه عن المدح في هذا العصر بأنَّ الشعراء فيه كانوا «يؤثرون إصابة الصواب، ويستوحون الصفات الحقيقية التي يتحلى بها الممدوح، في بساطة وصدق، متأثرين بحياتهم البسيطة، وبيئتهم التي لم تتلوث بعد بأكاذيب المدنية وعقدها، والتواءاتها التي تحمل على النفاق والكذب»[17].

وبهذا فإنَّ المدح في أول هذا العصر ليس فيه تزلُّفاً أو استجداء، وإنَّما هو صنيع لخدمة سلفت، أو مكافأة عن يدٍ، لا يستطيع المادح أداء حقها إلا بالشكر والثناء، وهذا ما يذهب إليه ابن رشيق القيرواني، بقوله: «وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة، أو مكافأة عن يد، لا يستطيع أداء حقها، إلا بالشكر إعظاماً لها...»[18].

وهذا اللون من المديح كثيراً ما يغلب على شعراء البادية، كما يلاحظ ذلك عند امرئ القيس بن حُجْر، في مديحه لبني ثُعل قوم المُعَلَّى، فقد أحسن إليه المعلَّى، وأجاده، حينما طلبه المنذر بن ماء السَّماء، لينتقم منه، ومن ذلك قوله:

يَا ثُعَلاَ، وَأَينَ مِنِّي بَنُو ثُعَلِ ... أَلاَ حَبَّذَا قَوْمٍ يَحِلُّونَ بالجَبَلِ

نَزَلْتُ عَلَى عَمْرو بن دَرْمَاءِ بُلْطَةً ... فَيَا كَرْمَ مَا جَارٍ، وَيَا حَسْنَ مَا فَعَلْ

فَأَبْلِغْ مُعَدَّاً والعِبَادَ وَطَيْئا ... وَكِنْدَةَ أَنِّي شَاكِرٌ لِبَنِي ثُعَل[19]

---

(17) تاريخ الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، لعبد الحميد المسلوت، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الأولى، 1973ف. ص270.

(18) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الثالثة، 1963ف، ج1، ص64.

(19) ديوان امريء القيس، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1969ف، ص197.

أمَّا من حيث الشكل الذي صاغ فيه الشعراء مضمونهم للمدح، فقد التزموا فيه باختيار الألفاظ القوية المحكمة، البعيدة عن التكلف، والابتذال، وذلك بسبب نقاوة بيئتهم العربية الخالية من اللحن، إذ أنَّهم لم يختلطوا بعد بغيرهم من الشعوب إلا نادراً، ولهذا كانت الفصاحة، وقوة البيان، هما المسيطران على شعر المديح في ذلك الوقت، وهذا ما نراه واضحاً في مدح زُهير بن أبي سُلمى، قال ابن عباس: «خرجتُ مع عمر بن الخطاب، في أول غزوة غزاها، فقال لي: أنشدني لشاعر الشعراء، فقلتُ: ومَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سُلْمَى، قلتُ: وبم صار كذلك؟، قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظل في المنطق، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمتدح أحداً إلا بما فيه»[20].

ويتضح ذلك في مدحه لقيس بن غَيْلان، ومن ذلك قوله:

إذَا ابْتَذَرَتْ قَيْس بنُ غَيْلانَ غَايَةً ... مِنَ المَجْدِ مَنْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا يُسَوَّدِ

سَبَقْتَ إِلَيْهَا كُلَّ طَلْقٍ مُبَرَّزٍ ... سَبوقٍ إِلَى الغَاياتِ غَيْرِ مُزَنَّدِ

فلو كانت حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تمت ... ولكن حمد الناسِ ليس بِمُخَلَّدِ[21]

تلك هي السمة الغالبة على هذا العصر، إلا أنَّ فئة قليلة من الشعراء، قد اتخذت من شعر المديح مهنة للارتزاق، ووسيلة للتكسب، تتقرب به إلى ذوي الخيرات، وأصحاب الجاه والنفوذ، يغدقون عليهم من الخصال الكريمة، والفضائل العظيمة ما يصل منها ـ أحياناً ـ إلى درجة المبالغة، بل اتجه بعضهم إلى الزلفى والتملق، ابتغاء مرضاة ممدوحيهم، وكسب عطاياهم، فكانوا يعنون بقصائدهم عناية فائقة، لدرجة أطلقوا على بعضها بالحوليات، ليحققوا بذلك التأثير في ممدوحيهم، كما في مدح المُسَيَّب بن عَلَس لمالك بن سَلَمة الخير في قوله:

كَفَّهُ مُتْلِفَةٌ، ومُخْلِفَةٌ ... وعَطَاؤهُ مُسْتَغْرِقٌ جَزْلُ

---

(20) رجال المعلقات العشر، لمصطفى الغلاييني، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، الطبعة الثانية، ص126.

(21) ديوان زهير بن أبي سُلمى، تحقيق كرم البستاني، ص23 وما بعدها، ورجال المعلقات العشر، ص 126،

يَـهِـبُ الـجـيـادَ كـأنَّـهـا عُـسُـبٌ جُـرْدًا أطـالَ نـسـيـلَـهَـا الـبـقـلُ

لـلـضـيـفِ والـجـار الـقـريـب ولـلـط فـل الـتـريـكِ، كـأنَّـه رَأْلُ

ولـقـد تـنـاولـنـي بـنـائـلـةٍ فـأصَـابـنـي مِـنْ مَـالِـهِ سَـجْـلُ[22]

وهذا الأَعْشَى، فقد اتخذ من المدح حرفة خالصة للمنالة والتكسب، يقال إنه لم يترك ملكاً، ولا سيِّداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا مدحه، ومن أمثلة ذلك ما جاء مدحه للأسْوَدِ بن المنذر اللَّخمي، كقوله:

أنـت خـيـرٌ مـن ألـفِ ألـفٍ مـن الـقـو مِ إذا مَـا كَـبَـتْ وجـوهُ الـرجـالِ

ووفـاءً إذا أَجَـرْتَ، فـمـا غـرَّ تْ حـبـالٌ وَصـلْـتَـهـا بـحـبـالِ

وعـطـاءٌ إذا سُـئِـلـتَ الـعِـد رَةُ فـيـنـا عَـطـيَّـة الـبُـخَّـالِ

أريـحـيٌّ صَـلْـتٌ يَـظَـلُّ لـه الـقَـو مُ وقـوفـاً قـيـامَـهـم لـلـهِـلالِ[23]

ثانياً ـ المدح في صدر الإسلام:

عرفنا ممَّا تقدم أنَّ المدح في الجاهلية استخدمه الشعراء باعتباره سلاحاً، يذودون به عن القبيلة بذكر بطولات رجالها وشجاعتهم، كي تهاب في أعين أعدائها، كما رأينا أنَّه كان وسيلة في أيدي الشعراء لعرض محامد قومهم، وتمجيد خصالهم، وأداة للتباهي بتلك الخصال، ومهنة يتكسب من خلالها بعضهم.

ولما سطع فجر الإسلام في بطحاء الجزيرة العربية، منادياً بوحدانية الله تعالى، ونبذ عبادة الشرك والأوثان، كان لهذا الدين تأثير واضح في تهذيب أسلوب المدح بما يخدم العقيدة الإسلامية، ويصقل النفس الإنسانية، ويدفعها إلى الخير، ويحثُّها عليه، ولذلك تحوَّلت اتجاهات المدح مما كانت عليه في الماضي إلى التأييد والإشادة بالدين الجديد الذي بشَّر به النبي محمد ﷺ لذلك طفق الشعراء الذين اعتنقوا الإسلام يتغنون بالفضائل التي جاء بها هذا الدين

(22) جمرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، دار بيروت للطباعة والنشر، 1973ف، ص197.

(23) ديوان الأعشى، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980ف، ص163.

الحنيف، مادحين الرسول الكريم ـ عليه السلام ـ ومشيدين بالتعاليم الدينية النبيلة التي نادى بها، يتقدمهم في ذلك شعراء المدينة، مثل حسَّان بن ثابت الأنصاري، فقد مدح الرسول ﷺ في بعض قصائده كقوله:

وَالله رَبِّ لا نُـفـارِقُ مَـاجِـدًا ... عَـفَّ الـخـلـيـقـةِ سـيِّـد الأجـدادِ
مـتـكـرِّمـاً يـدعـو إلـى رَبِّ الـعُـلا ... بَـذْلَ الـنـصـيـحـةِ، رافِـعَ الأعْـمَـادِ
مـثْـلَ الـهِـلالِ مُـبَـارَكـاً ذا رَحْـمَـةٍ ... سَـمْـحَ الـخـلـيـقـةِ، طـيِّـبَ الأعْـوَادِ[24]

كما يُنسب لأبي طالب قصيدة، يمدح فيها الرسول ﷺ يقول فيها:

وَمَـا تَـرْكُ قَـوْمٍ لا أبَـا لَـكَ سـيِّـد ... يَـحُـوطُ الـذِّمَـارَ غَـيْـرَ ذَرِبٍ مُـوَاكِـلِ..
وأبـيـضُ يُـسْـتَـسْـقَـى الـغـمـامُ بـوجـهِـهِ ... ثِـمَـال الـيـتـامـى عِـصْـمَـةٌ لـلأرامـلِ
يَـلُـوذُ بِـهِ الـهِـلَاكُ مِـنْ آلِ هَـاشـم ... فـهـم عـنـده فـي رَحْـمَـةٍ وفـوَاضـلِ[25]

وللعباس بن مرداس أشعار كثيرة، يشيد فيها بالرسول ﷺ والدعوة الإسلامية، كقوله:

نـبـيٌّ أتـانـا بـعـد عـيـسـى بـنـاطـقٍ ... من الحقِ، فيه الفضلُ منه كذلكَا
أمـيـنـاً عـلـى الـفـرقـانِ، أولُ شـافـعٍ ... وآخرُ مبعوثٍ، يُجيب الملائكا[26]

وكذلك من شعراء المديح الذين أشادوا بفضل الدعوة الإسلامية، ومدح القيم الإنسانية الطيبة التي دعا إليها الإسلام كعب بن زهير، فقد مدح رسولنا الكريم ـ عليه السلام ـ وأثنى على صحابته، في قصيدة بعنوان (بانت سعاد)، يقول فيها:

إنَّ الـرسـولَ لـنـورٌ يُـسْـتَـضَـاءُ بِـهِ ... وَصَـارِمٌ مِـنْ سـيـوفِ الـلّـهِ مَـسْـلُـولُ
فـي عُـصْـبَـةٍ من قـريـشٍ قـال قـائـلـهـم ... بـبـطـن مـكـةَ لـمـا أسـلـمـوا: زولـوا
زالـوا، فـمـا زالَ أنـكـاسٌ ولا كُـشُـفٌ ... عـنـد الـلـقـاءِ، ولا مـيـلٌ مَـعَـازيـلُ

---

(24) ديوان حسَّان بن ثابت، تحقيق سيد حنفي حسنين، ص338.

(25) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، دار إحياء التراث، ج1، ص395.

(26) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، دار الثقافة، الطبعة الخامس،ة 1981، ج14، ص235.

شُـمُّ الـعـرانـيـنَ أبـطـالٌ لُـبُـوسُـهُـمْ مِنْ نسيج دَاودَ في الهَيْجَاءِ سَرابيل[27]

هكذا تهذَّبت اتجاهات المدح في هذا العصر بما يخدم الدين الجديد، ليصبح داعياً إليه، ولساناً يشيد بفضله، مبيِّناً مكانته الرفيعة بين الأديان الأخرى، كما أخذ المدح في هذا العصر، يدور حول الفضائل الطيبة، والمثل الرفيعة التي نادى بها الإسلام، وحثَّنا على التخلق بها، كالصدق والأمانة، والتعاون، وحسن الجوار، والتسامح، إلى غير ذلك من الأمور التي تضمنها المدح في هذا العصر.

ثالثاً ـ الذم في العصر الجاهلي:

أمَّا الذم أو الهجاء في هذا العصر، فقد استخدمه الشعراء سلاحاً يدافعون به عن القبيلة وحماها، وذلك عن طريق التنديد بأعدائها، وإظهار ما بهم من عيوب ونقائص، لغرض الحط من شأنهم، حيث كان يمثل شعر الذم أو الهجاء عند العرب في ذلك العصر وسيلة هامة من وسائل الإعلام الفعَّالة ذات الأثر الكبير في المهجو أو المذموم، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد، أم على مستوى القبيلة؛ حيث يصبح المهجو حقيراً، يجرُّ أذيال الخزي والهوان ممَّا لحقه من هجاء، لا سيَّما إذا كان هذا الهجاء مطابقاً لواقعه[28].

وقد تعرضت كثير من القبائل العربية للهجاء، وتأثرت به اجتماعياً بين القبائل الأخرى، فالقبيلة إذا هجاها شاعر فحل، حطَّ الهجو أو الذم منها، ولن تعود إلى مقامها إلا إذا ردَّ شاعرها عنها، وليس في العرب قبيلة إلا هُجيت، فمن القبائل التي لم يؤثر شعر الذم فيها قبائل بني تميم، وبكر بن وائل، وأسد، وغيرها، ومن القبائل التي أثَّر الهجو فيها، مع مقامها الرفيع في الشجاعة أحياء من قيس، منهم غِنىً، وبَاهِلَة، ومُحَارب، وغيرها[29].

---

(27) جمرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، ص287.

(28) تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983ف، ج1، ص33.

(29) المرجع السابق، بنفس الموضع.

وعلى هذا فالذم له تأثيره في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك ما أصاب بني أنف الناقة من مجد وشرف، بعد أن كان الواحد منهم يتنكر لهذا اللقب، وقد بقوا على هذه الحال مدة، يرون فيه عيباً ونقيصة، حتى نهض الحُطيئَة، ومدحهم في شعره، مشيداً بهذا النسب، حيث قال فيهم:

قَـوْمٌ يَـبيـتُ قـريـرَ الـعـيـنِ جـارُهُـم ... إذا لَـوَى بـقـوى أطـنـابـهـم طُـنُـبـا

قَـوْمٌ إذا عَـقَـدُوا عَـقْـداً لـجـارِهـم ... شَـدُّوا الـعِـنـاجَ وشَـدُّوا فَـوْقَـهُ الـكَـرَبَـا

قَـوْمٌ هُـمُ الأَنْـفُ، والأَذْنَـابُ غَـيْـرُهُـم ... وَمَـن يُـسَـوِّي بـأَنْـفِ الـنَّـاقَـةِ الـذَّنَـبـا[30]

وبهذه القصيدة التي قالها الحطيئة فيهم، أصبحوا يتفاخرون بهذا اللقب، بعد أن كان يمثل لهم محلاً للذم والتحقير والسخرية.

هذا وقد كان العرب يحاولون التخلص من أذاء الذم أو الهجاء ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، لاعتقادهم أن الهجاء يرتبط بالشعائر، والأدعية، والابتهالات الدينية، وفي ذلك يقول أحد مؤرخي الأدب العربي: «فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقْرَن بما كانت تقرن به لعانتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه، ويتشاءمون، ويحاولون التخلص من أذاه مما استطاعوا»[31].

والدليل على خوف العرب من الهجاء، وشروره عليهم، ما رُوِي أنَّ الحارث بن ورقاء، لما أغار على عشيرة الشاعر زُهير بن أبي سُلمى، واستاق إبلاً له وغلاماً، قال فيه زهير أبياتاً، يتوعده فيها بالهجاء المقذع، ومن ذلك قوله:

لِـيَـأْتِـيَـنَّـك مِـنِّـي مَـنْـطِـقٌ قَـذَعٌ ... بَـاقٍ كَـمَـا دَنَّسَ الـقُـبْـطِـيَّـة الـوَدَكُ[32]

وعلى هذا فالهجاء أو الذم في بداية هذا العصر كان مقتصراً على الإقذاع،

---

(30) ديوان الحطيئة، دار صادر، بيروت، لبنان، 1981ف، ص16.

(31) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ لشوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ص197.

(32) ديوان زهير بن أبي سُلمى، دار الكتب المصرية، ص133.

فلا يسرف في السلب، والإفحاش في القول، بل يكتفي أحياناً بالتشكيك والتجاهل في فضل المهجو أو المذموم[33]، كما يلاحظ ذلك في قول زُهَير بن أبي سُلمى في آل حِصْن:

وَمَـا أَدْري، وَسَـوْفَ أَخَـالُ أَدْري أَقَـوْمٌ آلُ حِـصْـنٍ أَمْ نِـسَـاءُ؟
فَـإِنْ قَـالُـوا: الـنِّـسَـاءُ مُـخَـبَّـآتٌ فَـحُـقَّ لِـكُـلِّ مُـحْـصِـنَـةٍ هِـدَاءُ[34]

غير أنَّه في أواخر هذا العصر مال بعض المتكسبين إلى الإسراف في ذكر المثالب، والتهكم على المهجو، حينما لا يجدون حاجتهم، ومن أمثلة ذلك ما جاء في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر، كقوله:

دَعِ الـمَـكَـارِمَ لا تَـرْحَـلْ لِـبُـغْـيَـتِـهَـا وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنت الطاعِمُ الكَاسِي[35]

والخلاصة فإنَّ الهجاء أو الذم بصفة عامة، كان في بداية هذا العصر يمثل سحراً، يراد به إضعاف قوة الخصم، والحط من شأنه، وذلك بنزع الفضائل عنه، ووصمه بما يقابلها من نقائص أو عيوب، كالبخل، والجبن، وقلة الفضل، وانحطاط الأصل، إلى غير ذلك من المعايب، ثم انحدر فيما بعد إلى السخرية والتهكم، ونحوهما. وامتد ليشمل كل نقصية أو عيب، وذلك أنَّ المجتمع في تلك الفترة كانت تتحكمه عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية، وأنَّ الخروج عنها يعدُّ جريمة، يستحق مرتكبها اللوم والتعنيف، وأنَّ الهجاء أو الذم في ذلك العصر كان نوعين: نوعاً يتعلق بالأفراد، وهو ما يعبَّر عنه بالهجو الفردي أو الشخصي، وآخر يمتد إلى أفراد خارج القبيلة، ويسمى بالهجو القبلي[36]، كما يحدث ذلك بسبب الحروب بين القبائل، حيث يتصدى فيه الشاعر بالرد على شاعر القبيلة المعادية، محاولاً بذلك النيل منها، والتنقيص من شأنها بين القبائل.

---

(33) تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، ج1، ص79.
(34) ديوان زهير بن أبي سُلمى، تحقيق كرم البستاني، ص12.
(35) الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الثقافة، بيرون ـ لبنان، الطبعة الثالثة، 1960ف، ج1، ص245.
(36) تاريخ الأدب العربي، لعمر فرُوخ، ج1، ص33.

رابعاً ـ الذم أو الهجاء في صدر الإسلام:

لقد أثَّر الإسلام تأثيراً كبيراً في الذم أو الهجاء، إذ تهذَّب بفضله، وأصبح أداة طيّعة، يذود به الشعراء المسلمون عن هذا الدين الجديد وحرماته حيث أخذ شعر الهجاء يتصدى لأعداء الإسلام من المشركين والمنافقين، ومعارضي الدعوة الإسلامية، فقد هجر الشعراء المسلمون الذم الذي يثير الأحقاد الدفينة، ويحرِّك العصبيات القبلية، وشرعوا يستغلون هذا الأسلوب لخدمة الدين الحنيف، وذلك أنَّه لما ظهرت الدعوة الإسلامية، ثار بعض الشعراء المشركين، يتصدون لها بالهجاء، مثل عبد اللّه بن الزِّبَعْرِي، وكعب بن زُهير، وأبي سفيان بن الحارث، وغيرهم، لهذا انبرى الشعراء المسلمون في الرد على هؤلاء المشركين، بشتى الوسائل، وقد رُوي أنَّ الرسول ﷺ كان يحرِّض المسلمين أن يدافعوا عن الإسلام، فقال للأنصار: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟» فقال حسَّان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه، وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء، فقال ـ عليه السلام ـ: «كيف تهجوهم، وأنا منهم؟» فقال: إني أسلُّك منهم كما تسلُّ الشعرة من العجين، فقال رسول الله ﷺ: «أهجوهم، وروح القدس معك، لشعرك عليهم أشدُّ من وقع السِّهام»[37]، وبهذا هَجَا حسَّان بن ثابت المشركين، ومن أمثلة ذلك هجاؤه لبني جُمَح، ومَنْ أُصيب منهم يوم بَدْرٍ، كقوله:

جَمَحَتْ بَنُو جُمَحٍ لِشقوةِ جَدّهِم ... إنَّ الـذَّلـيـلَ مُـوَكَّـلٌ بـذلـيـلِ

جَحَدُوا الكتابَ وَكذَّبُوا بَمُحَمَّدٍ ... وَاللَّـهُ يُـظْـهِـرُ ديـنَ كـلِّ رَسُـولِ

قُـتِـلَـتْ بَـنُـو جُـمَـحٍ بِـبَـدْرٍ عُـنْـوَةً ... وتـخـاذلـوا سَـعْـيـاً بـكـلِّ سـبـيـلِ

لَـعِـنَ الإلَـهُ أبـا خُـذَيـمَـةَ وابـنَـهُ ... والـخـالـديـنَ وصَـاعِـدَ بـن عَـقـيـل[38]

والمتتبع لشعر الهجاء في هذا العصر، يجد أنَّ ألفاظه تغلب عليها بصفة

---

(37) الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1981ف، ج4، ص142، وتاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، ج1، ص191.

(38) السيرة النبوية، لابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج3، ص24.

عامة السلاسة والوضوح، بعيدة عن الغموض والتكلُّف، وأنَّ موضوعه يتجه في جملته إلى الدفاع عن الإسلام، ونبذ الشرك والوثنية، ولوم مَنْ يخرج عن تعاليم الدين الجديد، كما أصبح خالياً من الشتم والسَّباب، والطعن في الأعراض، حيث نهى الإسلام عن ذلك، وأخذ شعراء الذم أو الهجاء في هذا العصر، لا يتوعَّدون المشركين بشن الحملات الكلامية عليهم، أو تخويفهم بكثرة رجالهم وشجاعتهم في القتال، مثلما كان في الجاهلية، ولكن يتوعَّدونهم بالعذاب الشديد في الآخرة، وبئس المصير الذي ينتظرهم، في يوم لا ينفع فيه شيءٌ إلا التقوى والإخلاص في عبادة الله تعالى، ولهذا فإنَّ الذم أو الهجاء في هذا العصر كأن متأثراً بالقرآن الكريم، من حيث الاتجاهات، وبهذا فقد فتح شعر الذم أو الهجاء في ذلك العصر على بعض المشركين، وأعداء الإسلام أبواباً أمام رحمة الله تعالى وغفرانه، فقد ثاب كثير منهم إلى عقولهم، وعادوا إلى رشدهم، فدخلوا في الإسلام، وأصبحوا بعد ذلك سيوفاً مسلولة، تدافع عن حماه، وتجاهد في سبيل نشره[39].

هذا كما تغيَّر الهجو القبلي من هجو، يسبب الأحقاد والضغائن، ويثير العصبيات القبلية كالذي كان في العصر الجاهلي إلى هجاء سياسي بين شعراء الأحزاب، يتخلله في بعض الأحيان تهديد جاهلي قديم للحزب المعارض، وهذا ما نراه واضحاً في ذم حسَّان بن ثابت وهو يتوعَّد أشياع علي بن أبي طالب، بعد مقتل عثمان بن عفان، ومن ذلك قوله:

لَتَسْمَعَنَّ وشيكاً في دِيَارِهم ... اللّهُ أكْبَرُ يَا ثَارَات عُثْمانَا
أَتركْتُم غَزْوَ الدُّروب وجِئْتُمْ ... لِقِتَالِ قَوْمٍ عِنْدَ قَبْرِ مُحَمَّدِ
فَلبِئْسَ هَدْيُ الصَّالحين هَدَيْتُمْ ... وَلبِئْسَ فِعْلُ الجَاهِلِ المتعمّدِ[40]

وهكذا يتضح لنا ممَّا تقدَّم أنَّ مفهوم المدح والذم عند اللغويين يختلف عنه عند النحاة والبلاغيين، كما تبيَّن لنا من خلال الدراسة التاريخية لهذا

---

(39) تاريخ الأدب العربي ـ صدر الإسلام ـ لشوقي صيف، ج2، ص50.

(40) ديوان حسَّان بن ثابت، تحقيق سيِّد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974ف، ص216.

الأسلوب أنَّ اتجاهات المدح والذم في العصر الجاهلي كثيراً ما كانت تدور حول الأفراد والقبيلة، في حين أصبحت بعد ظهور الإسلام تهدف في الغالب إلى الإشادة بالدعوة الإسلامية، وتعظيم الله تعالى، وتمجيد المؤمنين الصالحين، ونبذ الكفر والشرك وتقبيح المعاصي والآثام، بغية الفوز برضا الله في الآخرة.